

تاريخنا العربي المعاصر ، في نصف القرن الاخير ، تصاعد من غير ريب ، ولكن بذبذبة شديدة القفز والانحدار واحيانا بحدة شديدة .

فضياع الاسكندرون ، وعربستان ، وفلسطين ، وفشل الوحدة المصرية - السورية . . . هذه كلها منحدرات في مسيرة تاريخنا المعاصر ، تعادلها ربما ، تلك القفزات التي سجلها خط المسار بزوال الملكية في أكثر من قطر ، وتقبل الاشتراكية كفكرة ، والوعي على الوحدة والنضال من أجلها ، ونمو الحركة الوطنية الجماهيرية ، وقيام الثورة الفلسطينية المسلحة الى غير ذلك مما نراه من ايجابيات هنا وهناك .

ومن المؤكد ان الدراسة النقدية لتجارينا في نصف القرن هذا ، ستكشف عن كثير من الاخطاء والخطايا التي ارتكبتها من تصدي لمهام المسؤولية من قادة ، على الصعيدين القطري والقومي .

ولا أظن ان « التجربة النضالية » الفلسطينية خلو من هذه الاخطاء وهذه العيوب ، وذلك على الرغم من أن « التابو » لم ينحسر نهائيا بعد عن البحث في تاريخ هذه التجربة ، وكأن مقدسية القضية قد انسحبت كذلك على أخطائها فباتت الاخطاء كذلك مقدسة لا تجرؤ عين الناقد على كشفها وان كشفتها عجز لسانه عن تردادها وتسجيلها .

ولست ادعي وأنا أشير الى هذه القضية بالذات ان نقد التجربة الفلسطينية النضالية هو بالامر الهين .

لان القضية الفلسطينية ، وكما كشفت الايام ، من أشد قضايا عالمنا المعاصر تعقيدا ، ولان عدو الشعب فيها يختلف كثيرا جدا عن العدو التقليدي للشعوب والذي عرف خلال المئتي سنة الماضية بالاستعمار .

ان الصهيونية كأيدولوجية ، معتمدة على اليهود بالذات - وهم ليسوا كغيرهم من أبناء ما تعرف الأرض من مذاهب - بتحالفها الذكي مع الاستعماريين القديم والجديد ، تجسد مفهوما جديدا للاستعمار لم يعرف له التاريخ من مثيل .

انها مشكلة فلسفية ونفسية تستحق وقفة كبرى ، عندما يكتشف الانسان ان اليهودي في موسكو - وبعد خمسين سنة من الحياة في خلال الشيوعية - يلتقي بنفس الحماس على نفس الآراء السياسية مع يهودي الولايات المتحدة والتشيبي واليمن .

انها مشكلة سياسية تستعصي على الفهم أن تجد الاميركي الليبرالي يستسلم في نيويورك لارادة اليهودي هناك في اقامة المجتمع المفتوح غير الديني ، في الوقت الذي تجده يدافع عن هذا اليهودي بالذات في بناء المجتمع الاسرائيلي المتعصب والمغلق . بل وأكثر من ذلك تجد ذلك الاميركي يساوم السوفيياتي من حسابه التجاري الخاص كي يفتح الاخير ابواب بلاده للهجرة اليهودية الى اسرائيل .

وكما قيل ، أكثر من مرة ، وباختصار ، ان العرب يواجهون في قضية فلسطين أكثر العقائد رجعية في الفكر وأكثرها وحشية وتخلفا ، ولكنها في نفس الوقت أكثرها تمتعا بأحدث قدرات التكنولوجيا والعلم الحديث .

ومن هنا فان التجربة النضالية ضد هذا العدو ، وفي مرحلة تمتد عبر سنوات طويلة من حرمان الأمة العربية من ارادتها الحرة والفاعلة ، لم تكن بالتجربة الهينة . وليس من السهل اليسير الاشارة الواثقة الى مواقع الخطأ والصواب فيها ، ولا سيما بالنسبة للمواقف المصرية .

وبكثر هذه الايام الحديث عن هذه التجربة ، ربما ليس بدافع علمي تاريخي مجرد ، وانما لاسباب سياسية وتوجيهية محددة .